أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل "دراسة انتقائية وصفية تحليلية"

د. محمد محمد عيسى فيض
كلية السياحة والضيافة – مصراتة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد كان تطور الشعر في عصر الخلفاء العباسيين الأوائل من الأمور البارزة، وشمل هذا التطور الشكل والمضمون. ولقد طالعت هذا العصر، وأخبارهم المنتشرة في أمهات كتب الأدب والتاريخ، وصلتهم بخلفاء عصرهم، لمعرفة ما إذا كان للخلفاء دور أو أثر في شعر الغزل، تلك هي أهم الأسباب التي دفعت بالباحث إلى تناول هذا الموضوع، فلم يكن هذا الغرض بمنأى عن بلاط الخليفة أو القائد أو الوزير، وقد بدأ أثر للخلفاء في هذا الغرض بدرجة كبيرة، ولقد كانت مجالس الخلفاء، مملوءة بشعر الغزل كفن أول للغناء، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، ولقد كان للغناء أثره الذي لا ينكر في شيوع الغزل عامة، وأصبح الغزل من أنواع الشعر التي طلبها الخلفاء في مجالسهم، واهتموا بشعرائه، والتذوا سماع شعرهم، وطلبوا منه كما طلبوا من شعر المديح، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملا بذلك أن ألقى ضوءاً ولو قليلاً على أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل. وقد حاولت أن أجعل البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في أربع مباحث وبعدها خاتمة، يتناول المبحث الأول أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في دعم الأدباء والشعراء والاهتمام بهم، ويتناول المبحث الثاني أثر الوزراء والقادة العباسيين في دعم الأدباء والشعراء والاهتمام بهم، ويتناول المبحث الثالث أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل، ويتناول المبحث الرابع أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل الفاحش المكشوف، مستخدماً المنهج الوصفي والمنهج التحليلي، وتتناول الخاتمة النتائج التي توصل لها البحث.

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول: أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في دعم الأدباء والشعراء والاهتمام بهم:

إذا كان خلفاء العباسيين الأوائل قد اجتمعوا بالعلماء والمصنفين، وشجعوهم تشجيعاً مادياً بسخاء ومدوا لهم يد العون، وشجعوهم تشجيعاً كبيراً، وحثوهم على العلم تأليفاً وترجمة، وكالوا لهم الدراهم والدنانير كيلا، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار العلم والفكر، يقول الباحث: إن ذلك لما يكن للعلماء فقط، ولكنه شمل أيضاً الأدباء والشعراء، فإذا كانوا قد اهتموا بالعلم فإنهم لم يغفلوا الفن، فقد احتووا الشعراء، ومنحوهم العطايا حسب ما ذكر ذلك كثير من مصادر الأدب – ما يبهر العقول، وقد يجعلها تقف حائرة بين التصديق والتكذيب لهذه الأخبار التي أوردها مؤرخو الأدب، "دخل ابن الخياط المكي على المهدي وقد مدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما قبضها فرقها على الناس وقال:

استلمت الورقة بتاريخ 02 نوفمبر 2020، وروجعت بتاريخ 19 ديسمبر 2020، وقبلت بتاريخ 31 ديسمبر 2020، ومتاحة على الانترنت بتاريخ 04 يناير 2021

أَخَذْتُ بِكَفّي كَفَّهُ أبتَغِي الغِنَى * وَلَم أدرِ أنَّ الجُودَ مِن كَفِهِ يُعدِيْ**

فَلا أنا مِنهُ ما أفادَ ذُوو الغِنَى * أفَدتُ وَأعْدَانِي فَبَدَّدْتُ ما عِنْدِيْ**

فنمى إلى المهدي فأعطاه بكل درهم ديناراً"[1].

ولقد كان المهدي من أكثر خلفاء بني العباس كرماً مع الشعراء، فقد أعطى مروان بن أبي حفصة مالم يعط لشاعر من قبله، ولقد أحس الشعراء، بكرمه هذا فأتحفوه بشعرهم الرائع الرصيف حتى غيبوه من وعيه في العطاء "وكان سلم الخاسر – قد كسب مالاً بقصيدته التي مدح بها المهدي، التي أولها:

حَضَرَ الرَحيلُ وَشُدَّتِ الأحداجُ * وَحَدا بِهِنَّ مُشَمِّرٌ مِزْعَاجُ**

شَرِبَت بِمَكَّةَ من دَوي بَطحائِها * مَاءَ النُبُوَّةِ لَيسَ فيهِ مِزاجُ**

وكان المهدي قد أعطى ابن أبي حفصة مائة ألف درهم بقصيدته إلى أولها: "طرقتك زارة فحي خيالها" فأراد أن ينقص سلماً عن هذه الجائزة، فحلف سلم ألا يأخذ إلا مائة ألف درهم، وألف درهم، وقال: تطرح القصيدتان إلى أهل العلم حتى يخيروا بتقديم قصيدتي، فأنفذ له المهدي مائة ألف درهم، وألف درهم، فلما بلغ إلى زمان الرشيد قال قصيدته التي أولها:

قَل لِلمَنازِلِ بِالكَثيبِ الأعفَرِ * أسقيتِ غادِيَةَ السَحابِ المُمطِرِ**

قَد بايَعَ الثَقلانِ في مَهدي الهُدى * لِمُحَمَّدِ بنِ زُبَيدَةِ اِبنَةِ جَعفَرِ**

فحشت زبيدة فاه دراً"[2].

"ذكر أبو محمد التيمي قال دخلت على محمد الأمين أول الخلافة، فقال: يا تيميّ، وددت أنه قيل فيَّ مثل قول طريح بن إسماعيل في الوليد بن يزيد:

طَوْبَى لِفَرعَيكْ مِن هُنَا وَهُنَا * طَوبَى لأعْراقِكَ الّتِي تَشِجُ**

فإني والله أحق بذلك منه، فقلت: أنا أقول ذلك يا أمير المؤمنين، ثم دخلت إليه من غدٍ فأنشدته قصيدتي: إلى:

لابُدَّ مِن سَكرةٍ عَلَى طَربِ * لَعلَّ رُوح بَديلَ من كُرَبِ**

حتى انتهيت إلى قولي:

أكرم بفرعَين يَجريَان به * إلى الإمَام المَنصُور في النّسبِ**

فتبسم، ثم التفت إلى الفضل بن ربيع، فقال: بحياتي أو قر له زورقه مالاً، فقال: نعم يا سيدي فلما خرجت طالبت الفضل بذلك، فقال: أنت مجنون، من أين لنا ما يملأ زورقك: ثم صالحني على مائة ألف درهم"[3].

وخلفاء بني العباس جميعهم كانوا يغدقون الأموال على الشعراء ببذخ وإسراف زائد، إلا "أبو جعفر المنصور"، فقد كانت حياته في شخصه، وفي عماله، وفي أهله تخضع لمحاسبة شديدة، فقد كتب إليه صاحب الخبر مرة أن المهدي – وهو ولي عهده – أعطى المؤمل بن أميل الشاعر[4] عشرين ألف

---

(1) عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دار الفكر العربي، د.ت، 259/5.

(2) المصدر نفسه، 491/5.

(3) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الشعب، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري، 1389ه-1969م، 7685/22.

(4) * المؤمل بن أميل، شاعر من أهل الكوفة، أدرك العصر الأموي واشتهر في العصر العباسي، انقطع إلى الخليفة المهدي قبل خلافته وبعدها، وهو صاحب الأبيات التي أولها: إذا مرضنا أتيناكم لعودكم *** وتذنبون فنأتيكم فنعتذر. وقد عمى في آخر عمره، توفى سنة 190ه. ينظر: خير الدين الزركلي، الإعلام، ط 10، بيروت، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1992م، 334/7.

درهم على قصيدة امتدحه بها، فإذا به يبعث في طلب الشاعر، ويسترد منه المال إلا أقله[1] ولم يكن هذا التصرف من المنصور مع شاعر مجيد مبنياً على عدم التقدير للفن نفسه، ولكن يرى أنه أراد أن يعلم المهدي التصرف بحساب، وخاصة أن الدولة في بدايتها تحتاج إلى مثل هذا الحساب، حتى لا تنهار سريعاً بسبب البذخ والإسراف، ولكن حاسة المنصور الفنية لم تكن عاجزة عن تقدير الفن، وتكريم المبدعين من الشعراء، والدليل على ذلك أن المنصور كانت تسرقه نفسه أحياناً فيعطي الشعراء ببذخ أيضاً، من ذلك ما حكاه الجاحظ قال: "كان أبو دلامة بين يدي المنصور واقفاً، فقال له: سلني حاجتك، قال أبو دلامة: كلبٌ أتصيد به، قال أعطوه إياه. قال: ودابةٌ أتصيد عليها. قال أعطوه. قال: غلامٌ يصيد بالكلب ويقوده. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنوها. قال أعطوه داراً تجمعهم قال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون: قال قد أعطيتك مائة جريب[2] عامرة، ومائة جريب غامرة. قال وما الغامرة، قال: ما لا نبات فيها. فقال: قد أعطيتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة"[3]، ولم يكن المنصور ليتحمل هذا الإفراط في المطالب – فيما يرى – على هذه الشاكلة إلا من رجل هو يعلم قيمته وقدره لذا فقد أعطاه وأغناه.
أما غير المنصور فإن الأعطيات كانت تخرج عن حدود المعقول، وتدخل في باب المبالغات في كثير من الأحيان، ولو لم تذكر الأخبار ذلك في أكثر من مصدر لعُدت من قبيل الأكاذيب. وقد كانت هذه الأموال الكثيرة التي يحصل عليها الشعراء، كفيلة بأن تجعلهم يجلسون في بيوتهم، لا همَّ لهم إلا إحكام بناء القصائد، والدقة في معانيها؛ لتنال القبول الذي يجلب الأموال، يقول مروان بن أبي حفصة: "إني إذا أردت أن أقول القصيدة، رفعتها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأنتخلها في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر"[4] فلم يكن نيل القبول بالأمر الهين، لأنهم كانوا يمدحون علماء بالشعر خبراء به.

وعلى شاكلة المهدي كان الرشيد، وكان المأمون، وكان المعتصم، وإن كان هناك تفاوتٌ إلى حد ما بينهم في العطاء، إلا أنهم على الجملة قد أغنوا الشعراء وكفوهم وأغدقوا عليهم الأموال بغير حساب، بل وحددوا لهم أوقاتاً معينة يسمح لهم بالوصول إليهم فيها، والوقوف بحضرتهم، وإنشاد الشعر لهم.

المبحث الثاني: أثر الوزراء والقادة العباسيين في دعم الأدباء والشعراء والاهتمام بهم:

لم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم، وأعيانهم، وأهلوهم أصحاب فضل أيضاً، فالبرامكة كانوا أجود الناس على وجه العموم، وخاصة مع الشعراء والمبدعين "دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى يوماً وقد جلس للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحدٌ، ثم التفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق له: أيها الوزير: إني ما كنت استعددت لهذه الحال، ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة فقال: هاتهما، فرُبَّ قليلٍ أبلغُ من كثير، فقال:

مَدَحَ الفَضلُ نَفسَهُ بالفِعَال * فعَلا عَن مَدِيحنَا بالمقَال**

أمَرُونِي بِمَدحِهِ قُلتُ كلاّ * كَبُرَ الفَضلُ عَن مَدِيح الرِّجَال**

فطرب الفضل وقال: أحسنت وأوجدت، ولئن قل القول وندر، لقد اتسع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطى لكل من أنشده يومئذ، وقال: لا خير فيما يجيء بعد بيتك وقام من المجلس"[5].

وقد كان البرامكة يحترمون الشعراء احتراماً شديداً، ويقدرونهم حق قدرهم، ولا ينظرون إليهم نظرة انتقاص بسبب طلبهم للأموال على قول الشعر، وكان الشعراء يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن

(1) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط 3، منقحة، دار المعارف، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، 1966م، 73/8.
(2) الجريب: المزرعة – المعجم الوسيط، جرب.
(3) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 3700/10.
(4) المصدر نفسه، 3546/10.
(5) عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 193/6.

برمك السؤال، فقال خالد: "هذا والله اسم استثقله لطلاب الخير، وأرفع قدر عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين. لأن فيه الأشراف، والأحرار، وأبناء النعيم، ومن لعله خير ممن يقصد، وأفضل أدباً، ولكن نسميهم الزّوار، فقال بشار: يمدح بذلك[1]:

حَدا خَالدُ في فِعلِهِ حَدوَ بَرمَكٍ	***	**فمَجدُ لَهُ مُستَطرَفُ وَأصِيلُ**
وَكَانَ ذوُو الآمَال يُدعَونَ قبلَهُ	***	**بلَفظ عَلَى الإعدَام فِيهِ دَلِيلُ**
يُسَمَّونَ بالسُؤَال فِي كُلِّ مَوطِنٍ	***	**وَإن كَانَ فِيهِم نَابهُ وجليلُ**
فسَمَّاهُمُ الزُوَّارَ سَتراً عَليهمُ	***	**فأستَارُهُ في المُجتَدِينَ سُدُولُ**

وكان لكبار القادة شعراء أيضاً يغدقون عليهم الأموال الطائلة، من أمثال معن بن زائدة الشيباني، وعمرو بن العلاء، وأبي دلف العجلي وغيرهم، ولقد بلغ بعلي بن جبلة أنه استحيا من كثرة عطاء أبي دلف له قال "علي بن جبلة: كنت لا أدخل على أبي دلف إلا يلقاني ببر، فلما أفرط انقطعت عنه حياء منه، فبعث إلى أخاه يقول: لم هجرتنا فكتبت إليه[2]:

هَجَرتُكَ لَم أهجُركَ مِن كُفرِ نِعمَةٍ	***	**وَهَل يُرتَجى نَيلُ الزِيادَةِ بِالكُفرِ**
وَلَكِنّني لَمَّا أتَيتُكَ زائِراً	***	**فَأفرَطتَ في برّي عَجَزتُ عَنِ الشُكرِ**
من الآنَ لا آتيكَ إلّا مُسَلَماً	***	**أزورُكَ في الشَهرَينِ يَوماً وَفي الشَهرِ**
فَإنْ زِدْتَني بِرّاً تَزَايَدتُ جَفوَةً	***	**وَلَمْ تَلْقِنيْ طولَ الحَياةِ إلى الحَشرِ**

وكأن بهؤلاء الممدوحين يسعون للمجد الدائم من خلال الشعر، وينفقون على أصحابه بهذا الكرم؛ لإحساسهم بقيمته الباقية.

- نستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين: إن حكام العباسيين اعتنوا بالفن الشعري متمثّلاً في الشعراء، وأراحوا كثيرين منهم من هموم الحياة المالية، وجعلوهم يعيشون حياة رغدة ثرية، لم يشعروا فيها بضيق الرزق، ولا بالسعي لجلبه بل "ماكنوا ليجدون الاعتراف الكامل بمواهبهم الفنية إلا في بلاط الخلافة"[3].

- وإحقاقاً للحق، فإن طائفة من الشعراء لم تتكسب بالشعر، ولم تسع به إلى أعتاب القصور، طلباً لجائزة من خليفة، أو درهم من وزير، ولكن كان من الواضح أن الشعراء الذين داروا في فلك الحكام كانوا أكثر شهرة وأجود إنتاجاً ممن ابتعد عن مدحهم.

"حسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم، كأبي دلامة، وحماد عجرد، وبشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، ومنصور النمري، وغيرهم، وللبرامكة شعراء أمثال: أبان بن عبد الحميد، وابن مناذر، والرقاشي"[4].

- إذا كان الحكام العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع، وطربوا للمديح، وفي الجهة المقابلة فإن سطوة سلطانهم – الحكام – قد دفنت بعض ينابيع الشعر دفناً نهائياً، وحرمت دنيا الأدب من فنهم وإبداعهم، لأسباب اختلف فيها فبسبب ما قتل عيسى بن موسى أبا

(1) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 1019/3.
(2) عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 237/6، وعلي بن جبلة، ديوان، ط 3، دار المعارف، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، د.ت، ص 63.
(3) كارل بروكمان، تاريخ الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف، نقله إلى العربية، عبد الحليم النجار،1961م، 12/2.
(4) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، 154/1.

نخيلة الشاعر حينما "لقب نفسه شاعر بن هاشم، فمدح الخلفاء من بني العباس، وهجا بني أمية فأكثر، وكان طامعاً، فحمله ذلك على أن قال في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى، ويعقد العهد لابنه محمد المهدي، فوصله المنصور بألفي درهم، وأمره أن ينشدها بحضرة عيسى بن موسى، ففعل، فطلبه عيسى فهرب منه، وبعث في طلبه فادركه في خراسان، فذبحه وسلخ جلده، وأقسم ألا يريم مكانه حتى تمرق الطير والسباع لحمه، فأقام حتى لم يبقى إلا عظامه وانصرف"[1].

- فالقرب من هذه الطبقة سلاح ذو حدين، قد يرفع إلى أعلى المراتب، وقد يكلفه حياته، وقد "كان سبب قتل المهدي لبشار، أن المهدي ولي صالح بن داوود أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ولاية، فهجاه بشار بقوله:

هُمُ حَمَلَوا فَوقَ المَنَابِرِ صَالِحاً * أَخَاكَ فَضَجَّتْ مِن أَخِيكَ المَنَابِرُ**

- فبلغ يعقوب هجاؤه فدخل على المهدي وقال له: إن بشاراً هجاك، قال: ويلك ماذا قال. قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشاد ذلك فقال: لابد. فأنشده:

خَلِيفَةَ يَزنِي بَعَمَّاتِهِ * يَلعَبُ بِالدَبُّوقِ وَالصَّولَجَان**

أبدَلَنَا اللهُ بِهِ غَيرَهُ * وَدَسَّ مُوسَى فِي حِرِ الخَيزُرَان**

فطلبه المهدي، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفوا عنه، فوجه إليه من القاه في البطيحة"[2].

- وقد حدث ذلك مع صالح بن عبد القدوس الشاعر حينما اتهمه المهدي بالزندقة، فأمر بحمله إليه فأحضر، فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثيابه، فأمر بتخلية سبيله، فقال: ألست القائل:

والشّيخُ لا يَتْركُ أخلاقَهُ * حَتّى يُوَارَى فِي ثرَى رِمْسِهِ**

إذا ارعَوَى عَادَ إلى جَهلِهِ * كَذَا الفَتَى عَادَ إلى نكسِهِ**

قال: بلى، قال: وأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك، ثم أمر به فقُتل وصلب على الجسر[3].

وإذا كان صالح بن عبد القدوس قد اتهم بالزندقة فكانت سبب قتله، فإن غيره قال بسبب شعره ليس إلا، كأبي نخيلة مثلاً.

والذي يخلص إليه بعد كل هذا، أن الخلفاء شجعوا وأثابوا الشعراء، واهتموا بهم.

---

(1) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 8107/23.

(2) شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، 1948م، 248/1.

(3) عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 331/5.

المبحث الثالث: أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في شعر الغزل:

هو من الفنون القديمة التي لم تكن بعيدة عن التطور والتجديد في العصر الأموي، ثم العصر العباسي، ومن المعروف والمشهور على مر العصور أن الغزل فن شخصي، يتعلق بكل شاعر غزل على حدة، يكون تعبيراً عما بين الشاعر وبين محبوبته، أو مثاله الذي يتغزل فيه، بمعنى أن الغزل استمر بعيداً عن الأوامر والنواهي المتعلقة بالحاكم أو الأمير حتى العصر الذي ندرسه، فأول ما نفاجأ به أن الغزل أصبح مطلباً يلح الخلفاء في طلبه من الشعراء، "كان أبو العتاهية يتغزل في شبابه، فرضى عنه هارون ندماؤه، ولم يكن يفارقه في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج"[1].

وإن كنا لا ننكر أن حب الغزل مطلب غريزي على مر العصور، قبل حكام بني أمية، من قول الخلفاء أنفسهم في شعر غزل، أو الإلحاح في طلبه مرة تلو أخرى، بل تشجيع عليه في بعض الأحيان، هذا عن الفن الغزلي عامة.

وإذا استثنينا أبا جعفر المنصور من الخلفاء العباسيين، وجدنا أغلبهم قال غزلاً، أو دعا إليه، أو أثاب عليه.

"دخل بشار علي المهدي، وقد عرضت عليه جارية مغنية، فسمع غناءها؛ فأطربه وقال لبشار: قل في صفتها شعراً؛ فقال:

وَرائِحَةٍ لِلعَينِ فِيهَا مَخيلَة	***	**إِذا بَرَقَت لَم تَسقِ بَطنَ صَعيدِ**
مِنَ المُستَهِلّاتِ السرُوْرَ عَلى الفَتى	***	**خَفا بَرقُها مِن عَبقَرٍ وَعُقودِ**
كَأَنَّ لِساناً ساحِراً في كَلَامِهَا	***	**أَعِينَ بِصَوتٍ للقُلُوبِ حَيُودِ**
تُمِيتُ بِهِ أَلبَابَنَا وَقُلوبَنَا	***	**[2]مِرَاراً وَتُحيِيهِنَّ بَعدَ هُمُودِ**

ثم هو نفسه يدخل يومياً بعض دوره، فإذا جارية نصرانية، وإذا جيبها واسع، وقد انكشف عما بين ثدييها، وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع، فاستحسنه، فمد يده إليه فجذبه، فأخذه فولولت على الصليب فقال المهدي في ذلك:

يَومَ نَازَعتُهَا الصَّلِيبَ فَقَالَت	***	**وَيحَ نَفسِي أَمَا تُحِلُّ الصَّلِيبَا!**

قال: أرسل إلى بعض الشعراء فأجازه، وأمر به فغنى فيه[3].

وبسبب حب المهدي الزائد للغزل، فقد كان يغض الطرف أحياناً عن بعض الغزل الذي يبدو غير لائق، فهذا أشجع السلمي قال: "أذن لنا المهدي وللشعراء في الدخول إليه، فدخلنا، فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس إلى جنبي بشار، فسمع حساً، فقال: يا أشجع، من هذا فقلت: أبو العتاهية، فقال لي: أتراه ينشد في هذا المحفل؟ فقلت: أحسبه سيفعل، فأمره المهدي أن ينشده فأنشده:

ألا ما لسيدتي مالها*، قال: فنخسني بمرفقه، ثم قال لي: ويحك! رأيت أجسر من هذا ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضوع"[4].

---

(1) كارل بروكمان، تاريخ الأدب العربي، 34/2.

(2) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 1028/3، القصيدة في أبي العتاهية، ديوان، تحقيق وشرح، كرم البستاني، بيروت، دار صادر، ص 375.

(3) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 185/8.

(4) عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 221/6.

* والتي يقول فيها أتتهُ الخِلافة منقادة إليه تُجَرِّرُ أذيَالهَا
ولَم تَكُ تَصلُحُ إلاَّ لَهُ ولَم يَكُ يَصلُحُ إلاَّ لَهَا
ولَو رَامَهَا أَحدٌ غَيرُه لزلزلت الأرض زلزالها

وقد كان استنكار بشار هذه الجسارة من أبي العتاهية استنكاراً في محله، ولكن حب المهدي للغزل كان شديداً فتغاضى عن المعاني غير اللائقة أمام الخليفة في هذا الموضوع، بسبب جودة الفن، وحب الغزل.

وقد روت لنا مصادر الأدب كثيراً من الأخبار عن الغزل كان مثارها المهدي، فها هو محمد بن صفوان الجمحي، قال: "حملت دينا بعسكر المهدي، فركب المهدي يوماً بين أبي عبيد الله وعمر بن بزيغ، وأنا وراءه في موكبه على برذون قطوف، فقال: ما أنسب بيت قالته العرب؟ قال أبو عبيدة: قول امرئ القيس إذ يقول:

وما ذَرَفَتْ عَيناكِ إلّا لِتَضرِبي *** **بسَهْمَيْكِ في أعشارِ قَلبٍ مُفَتّلِ**

قال: هذا أعرابي قُح، فقال عمر بن بزيغ: قول كثير بن أبي جمعة:

أريدُ لَأنسى ذِكرَها فَكَأنّما *** **تَمَثّلُ لي لَيلَى بِكُلِّ سَبيلِ**

قال وما هذا بشيء، وما له يريد أن ينسى ذكرها حتى تمثل له، فقلت: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك، جعلني الله فداك – فقال: الحق، قلت: لا لحاق لي، ليس ذاك من دابتي، قال احملوه على دابة، فقلت هذا أول الفتح، فحملت عليها فلحقته، فقال: ما عندك؟ قلت: قول الأحوص:

إذا قَلتُ أنّي مُشتَفٍ بِلِقائِها *** **فَحَمُّ التّلاقِي بيْنَنا زَادَنَا سُقمَا**

قال: أحسن والله، اقضوا عنه دينه، فقضى عني ديني"[1].

ثم هو يبعث إلى بشار ويطلب منه بشكل مباشر "قل في الحب شعراً ولا تُطل، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم أحداً، فقال بشار:

اجْعَل الحُبَّ بَينَ حِبِّي وَبَينِي *** **قَاضِياً إنّني بِهِ اليَومَ راضِي**

فَاجتَمَعنا فَقَلتُ يَا حِبَّ نَفسِي *** **إنَّ عَينِي قَلِيلَةَ الإغمَاضِ**

فبعث إليه المهدي: حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار"[2].

ولك يكن المهدي مفرداً بحب الغزل عن باقي الخلفاء العباسيين، بل إن الرشيد أحب وقال غزلاً بجانبه حب سماعه من الشعراء، فمن شعر الرشيد في ثلاث جوار كان يهواهن، وهن سِحرٌ، وضِيَاء، وخُنَث:

إنَّ سِـحْـراً وضِـيـاءً وخُـنَـثْ *** **هُنَّ سِحرٌ وضِيَاءٌ وخُنَثْ**

أَخذَتْ سِحْرُ ولا ذَنبَ لَهَا *** **ثَلْثي قلبي وَتِرْبَاهَا الثّلثْ**

ويقول أيضاً:

مَلَكَ الثّلاثُ الآنِساتُ عِنَاني *** **وَحلَلْنَ مِن قلبي بكلِّ مكانِ**

مَا لي تُطاوعني البريةُ كُلّها *** **وأَطيعهنَّ، وهُنَّ في عِصياني**

ما ذاكَ إلا أنَّ سُلطانَ الهوى *** **[3]وَبهِ قويْنَ أعزّ وهُنَّ في سُلطَانِي**

ولقد كانت مجالس الخلفاء، مملوءة بشعر الغزل كفن أول للغناء، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، ولقد كان للغناء أثره الذي لا ينكر في شيوع الغزل عامة، " حكى أن هارون الرشيد كان

---

[1] المصدر نفسه، 266/5.
[2] علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 1068/3.
[3] المصر نفسه، 6182/17.

يهوى جاريته ماردة هوى شديداً فتغاضبا مرة، ودام بينهما الغضب، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً، فعمل:

رَاجِعْ أَحَبِّتَكَ الّذينَ هَجَرتَهُم * إِنَّ المُتَيَّمَ قَلَّ ما يَتَجَنَّبُ**

إِنَّ التَجنُّبَ إِن تَطَاوَلَ مِنكُما * دَبَّ السُّلُوُ لَهُ فَعَزَّ المَطلَبُ[1]**

وأمر إبراهيم الموصلي فغنى به الرشيد، فلما سمعه بادر إلى ماردة فترضاها فسألت عن السبب في ذلك، فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف درهم، وسألت الرشيد أن يكافئهما"[2].

أما الأمين فغزلياته من الشهرة بحيث لا تحتاج إلى ذكر شواهد، والمأمون أحب الغزل أيضاً، وقد روى له أبو الفرج أنه "كان يستمع للشاعر ما دام في تشبيب أو وصف ضرب من الضروب، حتى إذا بلغ إلى مديحه لم يسمع منه إلا بيتين أو ثلاثة، ثم يقول للمنشد، حسبك! ترفعاً"[3].

وكأن المأمون لم يكن يقبل إلا العفيف من الغزل، فلقد روى عنه صاحب العقد الفريد أنه لما أمره أبوه بالصلاة على الكسائي وإبراهيم الموصلي والعباس بن الأحنف لما ماتوا في يوم واحد، قدم ابن الأحنف عليهم جميعاً، وقال: قدموا الذي يقول:

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَن وَطَنِه * هَائِماً يَبْكِي عَلَى شَجَنِهْ**

كُلّما جَدَّ البُكاءُ بِهِ * زَادَتِ الأَسقامُ في بَدَنِه[4]**

وهكذا أصبح الغزل من أنواع الشعر التي طلبها الحكام في مجالسهم، واهتموا بشعرائها، والتذوا بسماع شعرهم، وطلبوا منه كما طلبوا من شعر المديح.

---

(1) العباس بن الأحنف، ديوان، بيروت، دار صادر، تحقيق، كرم البستاني، ص 44.

(2) شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 24/1.

(3) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 7947/23.

(4) جمال الدين يوسف بن عمر بن عبد ربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ضبطه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، 1365ه-1946م، 378/5، والعباس الأحنف، ديوان، ص 311.

المبحث الرابع: أثر الخلفاء العباسيين الأوائل في الغزل الفاحش المكشوف:

تركت النقلة الاجتماعية الكبيرة في العصر العباسي، من شيوع ترف زائد عن الحد، أثراً كبيراً في فحش الغزل في العهد العباسي، "حيث خطا الشعراء بالغزل خطوات فسيحة في مجال اللهو والفجور، منساقين وراء الإباحية الزائدة، والمجون العابث، بعد انتشار مجالس اللهو والشراب وامتلأت بالقيان والمغنيات، اللائي خلعن ثياب العفة، وغلب عليهن الفجور، وأحاطت بكل شاعر طائفة منهن"[1].

وقد اشتهر كثيرٌ من شعراء العصر العباسي بالمجون، من أمثال مطيع بن إياس، ووالبة بن الحُباب، وحمّاد عجرد، ويحيى بن زياد، بجانب عملاقي الشعر العباسي بشار بن برد، وأبي نواس، أما جانب الجدة في هذا الغزل فإنه قد بلغ "درجة التهتك والعهر مع الانتشار الواسع بسبب التأثيرات الاجتماعية القوية، وشيوع المجون والخلاعة بين الطبقات المختلفة"[2].

وكان أبو نواس وبشار من أكثر الشعراء الذين دار حولهم الجدل، وفي غزلهم الفاحش على وجه الخصوص "وكان سحر الغزل والتشبيب في شعر بشار قوي التأثير في قلب الحرة والحصان"[3] وقد كان لهما اتصال مباشر ببلاط العباسيين، أما بشار فقد عرف بغزله الفاحش الذي أفسد شباب البصرة وفتياتها، وقد روت لنا كتب السابقين أن المهدي نهاه عن التشبيب لغيرة كانت فيه.

ويقول هدارة "ولعل زعيم التغزل الحسي الفاحش في القرن الثاني هو بشار، ونستطيع أن نتمثل خطورة تغزله في منع المهدي له، وتحريمه عليه"[4].

وفي سبيلي للبحث عن صلة لهذا النهي من الخليفة بالواقع، عثرت بنص لأبي الفرج الأصفهاني – يدفع إلى التريث – بعض الشيء يقول أبو الفرج:

"دخل المهدي إلى بعض حجر الحرم، فنظر إلى جارية منهن تغتسل، فلما رأته حسرت، ووضعت يدها على فرجها فأنشد يقول:

"نَظَرَت عَينِي لِحَينِي" ثم أرتج عليه فقال: من الباب من الشعراء؟ قالوا: بشار، فإذن له فدخل، فقال له أجز "نظرت عيني لحيني" فقال بشار:

نَظَرَت عَينِي لِحَيْنِي	***	**نَظَراً وافْقَ شَينِي**
سَتَرَت لَمّا رَأتنِي	***	**دُونَهُ بِالرَّاحَتَينِ**
فَضَلَت مِنهُ فَضُولٌ	***	**تَحتَ طَيِّ العُكنَتَينِ**

فقال المهدي: قبحك الله، ويحك! أكنت ثالثنا! ثم ماذا؟ فقال:

فَتَمَنّيتُ وَقَلبِي	***	**لِلهَوى فِي زَفرَتَينِ**
أنّنِي كُنتُ عَلَيهِ	***	**سَاعَةً أو سَاعَتَينِ**

فضحك المهدي، وأمر له بجائزة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أقنعت من هذه الصفة بساعة أو ساعتين؟ فقال: أخرج عني قبحك الله، فخرج بالجائزة"[5].

---

(1) محمد عبد العزيز الموافي، حركة التجديد في الشعر العباسي، مكتبة الشباب، 1991م، ص99.
(2) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط 1، بيروت، مطبعة دار العلوم العربية، 1408ه-1988م، ص 542.
(3) كارل بروكمان، تاريخ الأدب العربي، 15/2.
(4) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 543.
(5) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، 1077/30.

ولعل هذا الخبر يبعث على العجب من نهي المهدي لبشار عن الغزل المكشوف، وذلك أنه حثه على الغزل الماجن في هذا الخبر، ولم يزجره حينما سمعه يقول هذا الغزل الماجن، ولما بحثت عن الأبيات التي من أجلها كان نهي المهدي، فإذا هي قول بشار[1]:

قَاس الهُمومَ تَنَل بِها نُجُحَا * وَاللَيلَ إِنَّ وَراءَهُ صُبْحَا**

لا يُؤيِسَنَّكَ مِن مُخَدَّرَةٍ * قَولٌ تُغَلِّظُهُ وَإِن جَرَحَا**

عُسرُ النِسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ * وَالصَّعبُ يُمكِنُ بَعدَ مَا جَمَحَا**

وقد كانت هذه الأبيات نقطة التحول في فحش بشار، والأثر المهم في شعره الغزل الخاص بأثر الحكام، "فلما قدم عليه – أي علي المهدي – بشار استنشده الشعر، فأنشد إياه، فغضب وقال: ما حرض على الفجور، وحرك إلى الفسوق بأكثر من هذا القول! أستهل السبيل إلى الفجور، وتقذف المحصنات المخبآت! والله لأن قلت بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك"[2].

ويمكن تفسير هذا التعارض الواضح بين قبول المهدي للغزل المكشوف في خبر الأغاني، وبين الأبيات الأخرى، بأن المهدي قبل ذلك لنفسه، فلما فشا هذا الأمر الفاحش من بشار، غدا مصدر إزعاج لحاكم مجتمع إسلامي لا يليق فيه هذا الغزل الفاحش، فعمل الضغط الاجتماعي فيه أثره، ولا أظن لغيرة المهدي الشديدة علاقة بهذا النهي، وإلا أعطاه جائزة على وصفه المكشوف لإحدى حرمه إذا صح خبر الأغاني.

وأمام هذا النهي تحول فن بشار إلى غزل لائق إلى حد ما، وإن كان يظهر في شعره الضيق الشديد بهذا المنع في كثير من أشعاره، يقول[3]:

وَلَقَد أَخَذْتُ مِنَ الصَّفَا * مَا فِي الضَّمِيرِ وَقَد لَوَيتُه**

وَيَشُوقَنِي ذِكْرُ الحَبِيبِ * إِذَا غَدَوتُ وَأينَ بَيتُه**

قامَ الخَليفَةُ دُونَهُ * فَصَبَرتُ عَنهُ وَمَا قَلَيتُه**

وَنَهَانِي المَلِكُ الهَمَامُ * عَنِ النّسِيب وَما عَصَيتُه**

لا بَل وَفَيتُ وَلَم أضِع * عَهداً وَلا وَأياً وَأيتُه**

ويقول[4]:

وَلولاَ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * رَجَعْتُ بأخْرَى مِنْ دَمِ النّاسِ مِلْوَاح**

فَآلَيتُ لاَ آلُو الخَلِيفَةَ طَاعَة * وَلاَ أبتَغِي إِذناً عَلى ذَاتِ أوشَاح**

ويقول[5]:

وَزَجّاءَ بَرجاءَ فِي جَوهَرٍ * تَرُوقُ بِهَا عَينُ مَن يَلمَحُ**

خَروجٌ عَلَى جَمعِ أترَابِهَا * كَمَا يَخرُجُ الأبلَقُ الأقرَحُ**

---

(1) بشار بن برد، ديوان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، شرح السيد محمد الطاهر بن عاشور، علف عليه، محمد رفعت فتح الله، محمد شوقي أمين، 1954م، 97/2.

(2) المصدر نفسه، 97/2.

(3) المصدر نفسه، 62/2.

(4) المصدر نفسه، 119/2.

(5) المصدر نفسه، 110/2.

نَـهَانِي الخَلِيفَة عَن ذِكرِهَا * وَكُنتُ بِمَا سَرَّهُ أكدَحُ**

فَأعرَضتُ عَن حَاجَتِي عِندَهَا * وَلَلمَوتُ مِن تَركِهَا أروَحُ**

وهكذا، كان لمهدي أثره في تحول غزل بشار، وباعتراف بشار نفسه، من غزل فاحش ماجن غير مقبول في مجتمع مسلم، إلى غزل مقبول إلى حد كبير، ويرى بعض الباحثين أن غزل بشار الماجن لم يتأثر بنهي الخليفة المهدي، ولم يلحظ في أي تغير، يقول يوسف خليف: "ولكن بشاراً لم يستطع أن يكف عن هذا الغزل، فمضى يحتال عليه، فيتحدث عن نهي الخليفة له، ويضمن هذا الحديث ما يريده من غزل"[1]. ويرى الباحث مع تقديره الكبير لهذا الرأي – أن بشاراً قد خفت مجونة غزله – أيّاً كانت درجة هذا الانصياع لرأي الخليفة – بعد نهي المهدي له، فإنه لم ينته عن الغزل على عمومه أما الغزل الفاحش فقد ضعف عنده، والأدلة على ذلك في شعر بشار نفسه، فبعد أن قال "عسر النساء إلى مياسرة" نراه يقول الأبيات الغزلية العادية السابقة.

[1] يوسف خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، القاهرة، دار الثقافة، 1981م، ص 50.

خاتمة

بعد هذا البحث في موضوع أثر العباسيين الأوائل في شعر الغزل، نصل إلى العديد من النتائج والتي تتلخص في النقاط الآتية:

1- إن الخلفاء العباسيين اعتنوا بالفن الشعري متمثلاً في الشعراء وأراحوا كثيرين منهم من هموم الحياة المالية، وجعلوهم يعيشون حياة رغد ثرية، لم يشعروا فيها بضيق الرزق، ولا بالسعي لجلبه بل ما كانوا ليجدون الاعتراف الكامل بمواهبهم الفنية، إلا في بلاط الخلافة.

2- إذا كان الخلفاء العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع.

3- لم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم، وأعيانهم، وأهلوهم أصحاب فضل.

4- إن حب الغزل مطلب غريزي على مر العصور، قبل حكم العباسيين وبعده، ولكننا نجده في حكومة العباسيين مالا نجده في بعض حكام بني أمية، من قول للخلفاء أنفسهم في شعر غزل، أو الإلحاح في طلبه مرة تلو أخرى، بل تشجيع عليه في بعض الأحيان، هذا عن الفن الغزلي عامة.

5- قد كانت مجالس الخلفاء، مملوءة بشعر الغزل كفن أول للغناء، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، ولقد كان للغناء أثره الذي لا ينكر في شيوع الغزل عامة.

6- أصبح الغزل من أنواع الشعر التي طلبها الخلفاء في مجالسهم، واهتموا بشعرائها، والتذوا بسماع شعرهم.

7- تركت النقلة الاجتماعية الكبيرة في العصر العباسي، من شيوع ترف زائد عن الحد، أثراً كبيراً في فحش الغزل في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل.

المصادر والمراجع

1- أبو العتاهية، ديوان، تحقيق وشرح، كرم البستاني، دار صادر، د.ت.

2- أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.

3- بشار بن برد، ديوان، شرح، السيد محمد الطاهر بن عاشور، علق عليه، محمد رفعت فتح الله، محمد شوقي أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1954م.

4- جمال الدين يوسف بن عمر بن عبد ربه، العقد الفريد، ضبطه وعنون موضوعاته، ورتب فهارسه، أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1365ه-1946م.

5- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 10، مؤسسة ثقافة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1992م.

6- شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محي الدين عبد الحميد، ط 1، مكتبة النهضة المصرية، 1948م.

7- العباس بن الأحنف، ديوان، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

8- عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

9- علي بن جبلة، ديوان، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، ط 3، دار المعارف، د.ت.

10-علي بن حسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق، إبراهيم الأبياري، طبعة دار الشعب، 1389ه-1969م.

11-كارل بروكمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية، عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1961م.

12-محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 3، طبعة دار المعارف، 1966م.

13-محمد عبد العزيز الموافي، حركة التجديد في الشعر العباسي، مكتبة الشباب، 1991م.

14-محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط 1، مطبعة دار العلوم العربي، بيروت، 1408ه-1988م.

15-يوسف خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة، القاهرة، 1981م.